

فلسفة شوبنهاور

للاستاذ زكي نجيب محمود

عصره :

سادت في أوروبا روح التشاؤم في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وتملك النفوس بأس قاتل ، وارتفعت بذلك أصوات الشعراء والفلاسفة في كل ناحية من نواحي القارة : يرون في إنجلترا ، ودي موسيه في فرنسا ، وهبي وشوبنهاور في ألمانيا .

ولقد يتف المراء أمام هذه الظاهرة العجيبة وفيه لا تطول كثيرا حتى يجد أسباب ذلك في طبيعة ذلك العصر وظروفه التاريخية : فقد انفجرت الثورة في فرنسا ودوت في أرجاء أوروبا دويًا اهتزت من هوله عروش ، وكان لصوتها صدى في كل الصدور وأثر عميق في كل النفوس ، فن أشراف نافين ساخطين ، الى ذراع يهللون لها ويكبرون ... ثم دانت واقعة وتزلزلت ذلك الصوت الداري ، وعزل ناليون على صخرة سنت هيلانة الصامتة الموحشة في عرض المحيط ، وعاد (البوربون) الى ملكهم في فرنسا ، وعاد في ذيلهم أشراف الأقطاع يطالبون بأملأكم ، وانتشرت في أوروبا حركة رجعية تعمل على طمس معالم الثورة والتجديد .

كم من ملايين الشباب ذهقت نفوسهم عبثاً ، وكم من عامر الأرض بات خراباً بلفاً ... فكنت لا ترى على وجه أوروبا إلا آثاراً خربة وأنقاضاً هنا وهناك ، ذلك لأن الجيوش النابليونية الجرادة من ناحية ، وأعداءها من ناحية أخرى ، أخذت تروح وتجيء أكثر من عشرين سنة قضت فيها على الأخضر واليابس ، وخلفت القرى والمدائن يتأها فقر مدقع وبؤس شامل .

ماتت الثورة الفرنسية وكانما انتزعت معها روح الحياة من أوروبا ، لأن قلوب الشباب الطامع في كل بقعة من بقاعها كانت قد صغت الى الجمهورية الناشئة وعاشت في ظلال الأمل الوارفة حيث أمكت في مستقبل ذهبي سعيد ، فما هي إلا أن وقعت الواقعة في وتزلزلت كل هذه الآمال وتبدلت بمأساة سنت هيلانة ومؤتمر فينا ، فذبت في النفوس روح اليأس التي ملكت على الناس شعب الحياة ، وأثر ذلك في النزعة الدينية أثراً عظيماً : أما الطبقة الفقيرة الجاهلة فقد التحأت الى الدين تحيد في كنفه السوى والعزاء ، وأما الطبقة المفكرة ظلت على قلوبهم مريحة إلحادية ، ولم تعد عقولهم تسبح أن يكون نمة مدبر أعلى لهذا الكون .

فأما فريق المفيدة والدين فقد اتفق بأن هذه النكبات ليست إلا ادلالاً للنفوس جزاء وفاها بما نزعته اليه من الاعتزاز بحكم العقل وبذ العقائد وراه الظهور . وأما فريق الإلحاد فقد ارتأى أن اضطراب أوروبا ينهض دليلاً قوياً على فوضى الحياة وعثها ، وعلى رأس هؤلاء يرون وهبي وشوبنهاور .

فلسفته :

١ - العالم فكرة

يرى شوبنهاور أن الوساطة الوحيدة بين الإنسان والعالم الخارجي هي الحواس والمشاعر ، فانت اذا رأيت شجرة انطمت صورتها في ذهنك ، وهذه الصورة انما انتقلت عن طريق عدسة العين ، فقد تكون مطابقة لحقيقتها الخارجية وقد لا تكون ، وقل مثل ذلك في كل معلوماتك عن أجزاء الوجود ؛ فالصورة التي كونها ذهنك عن هذه الدنيا هي فكرة خلقتها حواسك ولا يتحتم أن يكون لها حقيقة واقعة مطابقة لها . واذا فلإنسان كما يقولون دنيا نفسه ، وأن في الوجود من الدق بمقدار ما فيه من عقول بشرية .

يخلص شوبنهاور من هذا بأن الواجب الأول هو دراسة العقل قبل البدء بدراسة المحسوسات ، لأن في دراسة العقل المفتاح الذي نصل به الى حقائق الوجود الخارجي .

٢ - العالم ارادة

يكاد يجمع الفلاسفة على أن كنه العقل وجوهره هما الشعور والفكر ، الا أن شوبنهاور يرفض ذلك رفضاً ، ويقول بأن الشعور إن هو الاقترنة خارجية لمقولنا لا يعرف على وجه الدقة ما تحويه في باطنها ، فهذا الغلاف المفكر يخفى وراءه ارادة لا شعورية ؛ لا يعتمد لها نشاط ؛ ولا تنبئ لها رغبات وآمال ، وهي التي تملك زمام الإنسان في كل حركاته وأعماله ، أما هذا المنطق الذي نحتكم اليه في كثير من شئوننا ، والذي يخيل لنا أنه تابع من العقل الواعي ، هو في الواقع ملهم هذه الارادة الباطنية ؛ فنحن لا نريد الشيء لأن هناك من الأسباب المنطقية ما يدفعنا الى ذلك ، ولكننا نخلق الأسباب خلقاً اذا كنا نريده ارادة لا شعورية . فالأسباب نتيجة لا مقدمة 11 بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا الزعم فنقول : إننا انما نخلق الفلسفات ونبتدع البيانات لنخفي في طياتها ورغباتنا الخفية .

ابحث في كل نواحي النشاط الإنساني ، تجد دوافعه مشتقة من الارادة اللاشعورية ، لأن العقل والشعور . فهذا الناس والتأخر

على أسباب العيش من طعام ولذات . انما ينبع من ارادة الحياة . التي يطنها كل كائن في طوايا نفسه ، حتى شخصية الفرد لا تكون من أعماله العقلية ولكن من نزواته اللاشعورية التي يتدفع اليها بآرادته الخفية ؛ ومن هنا كانت الديانات على اختلافها تمد الجنة للارادة الطاهرة (أى القلوب) ولكيها لا تعرف بالمعقول الكبيرة ولا تحسب لها في جانبها حسابا .

ولست سيطرة الارادة مقصورة على الحياة الفكرية . بل تعداها الى الدائرة الفسيولوجية . فآرادة الحياة خلقت أوعية يجري فيها الدم . وآرادة المعرفة خلقت عجا يصل ال شتى المعارف ، وآرادة القبض على الأشياء خلقت الابدى . وهكذا نشأ كل عضو بعد نشوء ارادة وظيفته ، فحركات الجسم هي في الواقع ارادات بحسب بل الجسم كله إرادة متبلورة .

إذن فالآرادة ، لا العقل ، هي كنه الانسان بل كنه الكائنات الحية جميعا ، هذه الآرادة التي تحدث عنها هي ارادة الحياة . وليس الحياة أبدا كان لونها ، ولكن آرادة الحياة الكاملة .

ولست هذه الآرادة مقسمة بين الأفراد . أعني ليس لكل فرد آرادته المستقلة تحت به كيف شئت ، ولكنها ارادة واحدة تتناول الحياة بأسرها ككتلة واحدة وشيئا لا يقبل التجزئة . فالفرد ليس حقيقة في ذاته ولكنه ظاهرة لحقيقة ، فهو جزء من كل مثلك ، ويخضع عليه بحكم آرادته أن يسير في طريق مرسوم حتى لا يضطرب نظام ذلك الكل المتحد . ومن هنا نشأت الرغبة التناسل مثلا ، فهي ليست رغبة فردية ، ولكنها رغبة الحياة بأسرها وهي وحدها التي تسخر الأفراد لصالحها بل إن هؤلاء الأفراد هم الصورة المحممة التي تظهر فيها آرادة الحياة . يقول سينوزا : لو أن حجرا ألقى في الهواء وكان لديه شعور وإدراك لظن أنه انما يتحرك بحسب آرادته الحرة وأنه هو الذي يختار الزمان والمكان اللذين يقع فيهما . وما أشبه الانسان في حياته بذلك الحجر الملقى : كلاهما تدفعه قوة خارجية وكلاهما يتوهم أنه حر . لا سلطان على آرادته .

نعم ، آرادة الحياة في عمومها حرة التصرف لأنه ليس هناك آرادة تحدد تصرفها ، ولكن كل قالب من قوالب الحياة ، أى كل جسد مائى يذب فيه جزء من الحياة ، محدود ولا ريب بتلك الآرادة الكلية سواء أكان ذلك القالب الحلى نوعا أم فردا أم عضوا من فرد .

٢ — العالم شر

مادامت الآرادة أساس الحياة ، فالحياة شر كلها . ذلك لأن

الآرادة سميت لسلسلة من الرغبات لا تنقطع . والرغبة عادة تمتد الى أكثر مما يستطيع الانسان تحقيقه : وهكذا يظل الانسان مدفوعا في حياته بآلاف الدوافع من الآمال التي ان تحقق بعضها فعضها خائب فاشل ، وهو أمام هذا الفشل الذي يفسده في كل خطوة يخطوها يسبحل عليه أن يتدقق في حياته سعاده مطلقة . ثم هو لا مناص له من هذه الرغبات التي يسرق بعضها بعضا ، لأن جوهر الانسان آرادة كائنا ، فإذا هو تخلص من آرادته قد تخلص من نفسه . ولا بد لهذه الآرادة أن تعيش وتتغذى . وهذه المطامع المستمرة في حياة الفرد هي الوقود الذي تخلفه الآرادة لنفسها .

والحياة كلها شر كذلك . مادامت الآلام هي طبيعة مادتها التي تتكون منها ، وليست السعادة إلا حالة سلبية يقف فيها تيار الآلام . وربما اصطاحنا على تسبب السعادة انما هي الحالة التي ينعدم فيها وجود الألم ، أعني أن ليس ثمة سعادة ايجابية . وقد أشار أرسطو الى هذه الحقيقة بقوله ان الحكيم لا يجوز له أن يبحث عن السعادة ، بل يجب عليه أن يسعى وراء التخلص من آلامه .

وفوق هذا كله ، فالحياة شر كلها لأنها عراك دائم ، فأينما سرت صادفت تاحرا وتنافسا وجهادا ، فكل نوع يقاتل في سبيل المادة والزمان والمكان .

نعم لا ريب في أن الحياة قاسية مؤلمة ، وليس يعجب شويهرر إلا من متفائل يتشتم لهذا العالم ، ويقول لو أن أشد الناس تفاؤلا طاف بالمستشفيات والجنون وساحات الحروب ليشهد ألوان الألم والعذاب . ولو أنه رأى البؤس الذي يتوارى خجلا في أركان الأكوخ المظلمة . نعم لو أبصر هذا وذاك وما هو شر من ذلك جميعا . لانتقلب متشائما يؤوسا على الفور . وإلا فعندئذ يربك من أين اشتق ذاتي صورة جسيمه إلا من هذا العالم الذي نعيش فيه ؛ ومع ذلك فقد كونها صورة ما أهرلنا من صورة !! ثم انظر كيف اصطدمت بمشكلة سقطت أمامها عبقرية عجزا واعيا . عندما أراد أن يصور الجنة سعيدة ، لأنه التمس من الحياة اجزاء الصورة التي يريد فمز عليه المثال !!

٣ — الفلسفة

وأينا كم يدفع المرء من الشقاء ثمنا باهظا لأنفاسه ! وعلمنا أن الحياة بما تحوى من شر تجارة خاسرة لا تساوى ثمنها !!

ولكن ألا نستطيع أن نرسم طريقا للسعادة ؟ ذلك ميسور اذا قلب جانب العقل والمعرفة على جانب الآرادة والرغبة من الانسان . فأنت عاجز عن ادراك السعادة اذا تملكك الآرادة منك (البقية على صفحة ١٥)